دراسات لغوية لإعجاز أسلوب القرآن الكريم

البلاغة الأسلوبية للأداة "لو" الشرطية غير الجازمة في سورة الإسراء

د.بن عمار محي الدين

جامعة سعد دحلب . البليدة

ملخص البحث:

مما لا شك فيه أن قضية إعجاز القرآن الكريم، قد استنفرت ألباب النحويين والبلاغيين، فغاصوا في لغة القرآن وبلاغته يكتشفون منها درره ونفائسه، ويحددون أوجه إعجازه، وروعة مناحيه البلاغية والأسلوبية الجمالية والفنية؛ مما فجر بعد ذلك ما عرف بنظرية النظم عند الباقلاني وعبد القاهر الجرجاني بصورة أخص، وكان من بين تلك الأساليب القرآنية –التي شدت انتباهي– أسلوب الشرط وأحكامه، وقد تفنن القرآن في تصويره وتطريزه، وتفريع أحكامه وأدواته، فعزمت – بذلك– التنقيب عن جزئية من جزئيات هذا الأسلوب، الأدوات الشرطية غير الجازمة، واخترت منها الأداة "لو"، وذلك في الآيات: الثانية والأربعين، والخامسة والتسعين، والمائة من سورة الإسراء، فجاء هذا البحث مقسما إلى مبحثين أساسين؛ الأول يعنى بالمعاني النحوية الإعرابية، والثاني يختص بالمعاني الزمنية البلاغية.

إشكالية البحث:

يحاول هذا البحث أن يجيب عن الأسئلة التالية –قدر المستطاع– وهي : إذا كان لقرآن الكريم معجزا في نظمه وأساليبه، فبماذا تميز عن العرب الفصحاء في استخدام أسلوب الشرط؟ وفي توظيف أدواته؟ سواء في أحكامها النحوية، أو في دلالاتها الشرطية البلاغية، ما داموا قد اشتهروا بالتفنن في هذا الأسلوب وغيره، والدراسات النحوية –قديمها وحديثها– قد استوفته دراسة ومنهجا وتأليفا؟ وعلى ماذا اعتمد في تحديد معانيها ودلالتها؟ هل تدل "إذا" الشرطية على مجرد التعليق المستقبلي في النحو القرآني .كما هو مشهور عند النحاة العرب . ؟ أم أن هناك معاني نحوية وبلاغية ابتكرتها الصياغة القرآنية، واستقل بها نظم الآيات في السورة القرآنية الواحدة؟ وما دلالة ذلك على قضية إعجاز القرآن الكريم لغة وأسلوبا؟

1 . مدخل عام: إعجاز أسلوب الشرط في القرآن الكريم

تميز أسلوب القرآن الكريم بوجوه كثيرة في إعجازه، عسر على العلماء استقصاؤها جميعا، مما دفع السيوطي إلى القول: «والصواب أنه لا نهاية لوجوه إعجازه»[1]، ودفع السكاكي أيضا إلى القول: «اعلم أن إعجاز القرآن الكريم يدرك ولا يمكن وصفه»[2].

والحقيقة أن لإعجاز القرآن الكريم جانبان: جانب تاريخي، وهو عبارة عن «تلك المقدمات والوقائع الدالة على وقوع التحدي بالقرآن في التاريخ –وبخاصة في زمن النزول–»[3]، وجانب موضوعي، وهو عبارة عن تلك الوجوه التي صار بها القرآن معجزا، وقد نص كثير من العلماء أن التحدي وقع في نظم القرآن وأسلوبه[4].

1– معترك الأقران في إعجاز القرآن: السيوطي، ت. علي البجاوي، دار الفكر العربي، 3/1.

2– مفتاح العلوم: أبو يعقوب يوسف السكاكي، ت. عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1. ص526.

3– مدخل إلى تفسير القرآن وعلومه، عدنان محمد زرزور، دار القلم، ط2، ص 145.

4– كالباقلاني والجاحظ والخطابي وعبد القاهر الجرجاني وغيرهم كثير.

ومن بين ما عرف من أساليبه أسلوب الشرط، ولذا استدعت الدراسة الإشارة إلى المفاهيم التالية: الإعجاز الأسلوبي، مفهوم الشرط ودلالته، التعريف بموضوع سورة الإسراء ودروسها، وأغراضها السياقية والزمانية.

1- الإعجاز الأسلوبي للقرآن الكريم:

إعجاز القرآن -كما يقول الزرقاني[1]- مركب إضافي، معناه بحسب أصل اللغة: إثبات القرآن عجز الخلق عن الإتيان بما تحداهم به، «فالقرآن المعجز هو البرهان القاطع على صحة النبوة»[2].

فإعجازه قد وقع فيما نبغت به العرب من فصاحة الألفاظ، وبلاغة الكلام، أو ما عبر عنه مصطفى صادق الرافعي بإعجازه «في نظمه ووجه تركيبه واطراد أسلوبه»[3]، وهذا ما يجر إلى الحديث عن مفهوم أسلوب القرآن الكريم:

1-1- مفهوم الأسلوب: يطلق الأسلوب في اللغة على سطر النخيل، وعلى كل طريق ممتد، وكذلك على الوجه والمذهب، والفنون المختلفة[4].

وأما اصطلاحا: فيطلق على: «الطريقة الكلامية التي يسلكها المتكلم في تأليف كلامه، واختيار ألفاظه ومفرداته، أو هو المذهب الكلامي الذي انفرد به المتكلم في تأدية معانيه ومقاصده من كلامه، أو هو طابع الكلام أو فنه الذي انفرد به المتكلم كذلك»[5].

1-2- أسلوب القرآن الكريم: وهو طريقته التي انفرد بها في تأليف كلامه واختيار ألفاظه، ولا غرابة أن يكون للقرآن أسلوب خاص به[6]، وهو -في ذلك

1- مناهل العرفان في علوم القرآن: محمد عبد العظيم الزرقاني، ط. دار الحديث، 277/2.

2- مقدمة كتاب الظاهرة القرآنية لمالك بن نبي: محمود شاكر، ط. دار الفكر، ص 18.

3- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، مؤسسة الكتب الثقافية، ص 128.

4- ينظر: لسان العرب، ابن منظور، ط، دار صادر، 473/1، مادة (سلب).

5- مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني، مرجع سابق، ص/253.

6- المرجع نفسه.

(الأسلوب)- غير المفردات والتراكيب -وإن كان جزءا منه-، فهو يهتم بالطريقة والصياغة الخاصة للقرآن الكريم لجميع مفرداته وألفاظه وتراكيبه، صياغة محكمة موحدة، كأنها سبحة بديعة رصفت فيها حباتها رصفا متآلفا متناسقا ومترابطا، فأسلوب القرآن الكريم بهذا متسم بخصائص عديدة، بدءا من دقة وجمال نظامه الصوتي وانتهاء بجودة سبكه وجودة معانيه ووضوحها وقوتها[1].

2- مفهوم الشرط وبيان دلالته:

1-3- التعريف: يطلق الشرط في اللغة على معنيين أساسيين: الأول: علامة الشيء الدالة عليه، وإليه أشار ابن فارس[2] والرازي[3] وغيرهما. والثاني: إلزام الشيء والتزامه بصورة معينة كما أشار إلى ذلك ابن منظور[4].

وأما في الاصطلاح، فقد عرفوه تعريفات كثيرة تتفق أغلبها في أن يقع الشيء لوقوع غيره، أي يتوقف الثاني على الأول، قال أبو البقاء: «الشرط: تعليق حصول مضمون جملة بحصول مضمون جملة أخرى»[5]، وعرفه الرضي بأنه «ما يطلب جملتين، يلزم من وجود مضمون أولهما فرضا حصول مضمون الثانية؛ فالمضمون الأول مفروض ملزوم، والثاني لازمه»[6].

وشرط صحة التعليق بين الشرط وجوابه أن يكون على ما هو ممكن جائز الوقوع كالقيام والقعود، لا على المستحيل كالجمع بين الضدين، ولا واجب على الوقوع كطلوع الشمس، والعلة في ذلك أن الشرط «مأخوذ من العلامة، وأنه علم

---

[1]- ينظر في ذلك: مناهل العرفان للزرقاني، المرجع نفسه، 2/258-276.

[2]- معجم مقاييس اللغة: أحمد بن فارس، ت. عبد السلام هارون، 3/260.

[3]- مختار الصحاح: محمد الرازي، ط. دار الفكر، مادة (ش ر ط)، ص 294.

[4]- لسان العرب: ابن منظور، مادة (ع ه د)، 3/312.

[5]- الكليات: أبو البقاء الكفوي، مؤسسة الرسالة، ص 255.

[6]- شرح الكافية لابن الحاجب: الرضي الاستراباذي، دار الكتب العلمية، 2/108.

على مشروطه، والعلامة لا تكون مستحيلة، ولا يجب أن تكون واجبة، بل جائزة. هذا هو الأصل في الشرط»[1].

وقد يكون الشرط سببا في الجزاء، كقوله تعالى: ﴿**وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم**﴾ [2]، كما قد يقع لمجرد الدلالة على اقتران أحدهما بالآخر، كقوله تعالى: ﴿**وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذا أبدا**﴾ [3]؛ إذ لا يجوز «أن تكون الدعوة سببا للضلال، ولا مفضية إليه، ولا أن يكون الضلال مفضيا إلى الدعوة»[4].

1-4- دلالة الشرط: ذهب النحاة إلى أن الشرط يفيد الاستقبال، وإذا كان فعله ماضيا؛ فإن أدواتها تقلب الماضي إلى الاستقبال[5]، ولا يفيد عندهم المضي، وما ورد من ذلك فهو مؤول.

والصواب كما هو مذهب المحققين[6]، أن الشرط قد يأتي للمضي أيضا، يدل على ذلك الاستعمال الفصيح مما لا يقبل التأويل؛ وذلك إذا كان بلفظ (كان) بعدها فعل ماض، نحو قوله تعالى: ﴿**إن كنت قلته فقد علمته**﴾ [7]، والمعنى: «أنك تعلم ذلك إذا صدر مني، فإنه لا يخفى عليك شيء»[8]، والنحاة يؤولون ذلك على أنه: إن ثبت أني كنت قلته، أو إن يثبت في المستقبل أني قلته في الماضي[9]، يعقب على ذلك الدكتور فاضل بقوله: «وهو تأويل بعيد؛ فكيف يقول لربه: إن يثبت في

---

[1]- الصعقة الغضبية في الرد على منكري العربية: سليمان الطوفي، ت. محمد الفاضل، مكتبة العبيكان، الرياض، ص 532.

[2]- سورة محمد، الآية 36.

[3]- سورة الكهف، الآية 57.

[4]- معاني النحو: فاضل صالح السامرائي، ط. دار الفكر، 55/4.

[5]- حاشية الخضري مع شرح ابن عقيل، دار الفكر، 122/2.

[6]- معاني النحو: فاضل صالح السامرائي، مرجع سابق، 64/4.

[7]- سورة المائدة، الآية 116.

[8]- تفسير القرآن العظيم: ابن كثير، دار الفجر للتراث، ط1، 180/2.

[9]- ينظر: حاشية الخضري، مرجع سابق، 122/2.

مستقبل وهو في خطاب الله عز وجل، وهل الله جاهل ذلك وقت الخطاب حتى يثبت له في المستقبل»[1]، وبعض النحاة يصرح بأنه قليل الاستعمال[2].

وقد يدل الشرط -أيضا- على الحال، بالإضافة إلى المضي والاستقبال، كقوله تعالى: ﴿قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين﴾[3].

الفرع الاول: بلاغة المعاني النحوية للأداة "لو" في سورة الإسراء:

إن إعجاز القرآن الكريم في نظمه يعني أن كل كلمات الآية هي في موقعها المكين؛ من حيث مراعاة معاني النحو من فاعلية ومفعولية وابتداء وخبر وغيرها، وأن هذا التعلق والتآلف بينها هو الذي يميز النظم القرآني عن سائر النظم الأخرى. بذلك أكد الجرجاني بقوله: «اعلم أنك إذا رجعت إلى نفسك علما لا يعترضه شك علمت أن لا نظم ولا ترتيب حتى يعلق بعضها ببعض»[4]، وبقوله أيضا: «فهذه الطرق والوجوه في تعلق الكلم بعضها ببعض، هي كما تراها معاني النحو وأحكامه»[5].

فليس الغرض هنا بيان الوجوه الإعرابية للآيات القرآنية التي تضمنت الأداة "لو" الشرطية غير الجازمة فقط، وإنما -إضافة إلى ذلك- بيان العلاقة الوطيدة بين هذه المعاني النحوية المتنوعة، وتبيّن كيفية تأسيسها لإعجاز النظم القرآني وجمالياته.

والنحاة على أن "لو" تدل على الشرطية سواء كانت امتناعية، والتي يسميها سيبويه «حرف يدل على ما كان سيقع لوقوع غيره»[6]، وهي «عبارة صحيحة دقيقة

---

[1]- معاني النحو، فاضل صالح السامرائي، 64/4.

[2]- شرح الكافية، الرضي الاستراباذي، 293/2.

[3]- سورة البقرة، الآية: 93.

[4]- دلائل الإعجاز: عبد القاهر الجرجاني، ت. محمود شاكر، ط. مكتبة الخانجي بالقاهرة، ص 55.

[5]- المصدر نفسه، ص 87.

[6]- الكتاب: سيبويه، 269/1.

لا تحتاج إلى تأويل أو تقدير أو زيادة»[1]، وذكروا من أهم أحكامها النحوية أنها أداة شرطية قياسية الاستعمال، لا تجزم على الرأي الأرجح[2]، وأنه يلزم أن يكون شرطها محكوما بامتناعه، وأما جوابها فلا يلزم امتناعه دائما، بل ينظر فيه، فإما أن يكون له سبب غير شرطها، وإما ألا يكون، فإن لم يكن للجواب سبب غير شرطها اقتضت العبارة امتناعه لامتناع سببه الذي لا سبب سواه[3]،وأنه لا بد أن يليها الفعل، ويكثر دخولها على أن المصدرية، نحو قوله تعالى: ﴿**وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ**﴾[4]، ويجوز أن يليها قليلا اسم معمول لفعل محذوف يفسره ما بعده، وذلك عند جمهور النحاة، وقال قوم من الكوفيين: هذا الاسم المرفوع مبتدأ خبره ما يذكر بعده[5]، وهو ما رجحه بعض المعاصرين[6].

أو كانت "لو" غير امتناعية، وهي قليلة الاستعمال، وذكروا من أهم أحكامها أن الأغلب أن يكون فعل شرطها وفعل جوابه مضارعين لفظا ومعنى، ويتحتم أن يكون زمنها للمستقبل الخالص، وإذا وليها فعل ماض فانه يؤول بالمستقبل، لأصالته في الاستقبال[7].

كما أن جواب "لو" إما ماض معنى، نحو: "لو لم يخف الله لم يعصه"، أو وضعا، وهو إما مثبت فاقترانه باللام كقوله تعالى: ﴿**لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا**﴾[8]، أكثر من تركها، وإما ملغي فالأمر بالعكس[9].

---

[1]- النحو الوافي: عباس حسن، 433/4.

[2]- المرجع نفسه.

[3]- وهذا سر شرطيتها، ينظر: شرح المفصل: ابن يعيش، 11/9-12.

[4]- سورة الحجرات، الآية 5.

[5]- ينظر: شرح الكافية: الرضي الاستراباذي، 390/2.

[6]- شرح أوضح المسالك: محي الدين عبد الحميد، 229/4-230.

[7]- شرح المكودي على الألفية: مرجع سابق، ص161.

[8]- سورة الواقعة، الآية 65.

[9]- شرح أوضح المسالك: محي الدين عبد الحميد، 230/4.

ويحذف جواب "لو" كثيرا في القرآن وفي الشعر، فمن الأول قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى﴾[1]،ومعناه: لكان هذا القرآن، وفيما يأتي بلاغة معانيها النحوية في الآيات التي وردت فيها من سورة الإسراء.

1- في قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً﴾، الآية 42.

التوجيه الإعرابي:

"قل" فعل أمر وفاعله مستتر –أنت–، "لو" شرطية، حرف امتناع لامتناع عند جمهور النحاة، "كان" فعل ماض ناقص، "معه" ظرف منصوب متعلق بخبر كان مقدم، والهاء" مضاف إليه، "آلهة" اسم كان مرفوع، وجملة "كان ومتعلقاتها" في محل نصب مقول القول، وجملة "قل" استئنافية، "كما" الكاف حرف جر[2]، و"ما" مصدرية، "يقولون" مضارع مرفوع بثبوت النون، و"الواو" فاعل، والمصدر المؤول من "ما" والفعل "يقولون" في محل جر بالكاف متعلق بحذف مفعول مطلق، [ويجوز أن تكون "ما" موصولة، وجملة "يقولون" صلة لها]، "إذا" حرف جواب، "لابتغوا" اللام رابطة لجواب "لو"، و"ابتغوا" فعل ماض، والواو فاعله، والجملة لا محل لها جواب "لو" غير الجازمة، "إلى ذي" جار ومجرور بالياء متعلق بـ "ابتغوا"، "العرش" مضاف إليه مجرور، "سبيلا" مفعول به منصوب[3].

1- سورة الرعد، الآية 31.

2- وجه البعض أن «محل الكاف–هنا– النصب على النعت لمصدر محذوف، تقديره: كونا مثل قولكم، أو ثباتا مثل قولكم...» الفريد في إعراب القرآن المجيد، الهمذاني، 278/2.

3- إعراب القرآن الكريم، عبد الله علوان وآخرون، 1258/2.

التوجيه البلاغي الإعرابي:

الملاحظ أن أغلب الآيات التي وردت فيها "لو" الشرطية قد كانت معمولا لفعل الأمر "قل"[1]، وفي ذلك عطفا على الآيات قبلها، إجابة لاستفسار أو ردا على اعتقاد فاسد، كما هو هنا «فكأنه قيل: فما يفعل بهم؟ فقال: "قل" لهم»[2]، وهذا تصدير بديع، ثم أردفه بالناسخ (كان) ومتعلقاته، لاحتواء شبهات المشركين إيرادا وردا، وتأمل كيف قدم خبر كان على اسمه، اهتماما بتوحيد الله تعالى، وحصر ذلك له وحده، مقابلا له "آلهتهم" بصيغة الجمع جامعا في ذلك كل المعبودات التي اخترعها الإنسان بأوهامه في تاريخ البشرية، كما يفيد ذلك تنكير "آلهة" ثم أردف ذلك بجملة معترضة "كما تقولون" «للتنبيه على أن تعدد الآلهة لا تحقق له، وإنما هو مجرد قول عار عن المطابقة لما في نفس الأمر»[3]، واختار الحرف "إذن" لجواب الشرط تأكيدا لمعناه "الجواب" الذي تدل عليه اللام المقترنة بجواب "لو" امتناعا لامتناع، ثم قرنها بالفعل "ابتغوا" تحقيقا لطلب طريق الوصول إلى الشيء، وهو هنا في قوله "سبيلا" الذي إما أن يكون قهرا أو غلبة، أو محبة وذلا ورغبة، فعلى المعنى الأول يكون تمام دليله محذوفا إيجازا مستلزما في تدافع مفضي إلى خراب العالم، وعلى المعنى الثاني يكون مجازا في التوسل إليه والسعي إلى مرضاته[4].

وتأمل كيف قدم الجار والمجرور "ذي العرش" على المفعول به "سبيلا"، مع استحضاره بالوصف دون ذكر الذات العلية تعظيما لجلالته في أنه «مثار حسد الآلهة وطمعهم في انتزاع ملكه، أو في ابتغاء سعة ما عنده»[5].

---

[1]- ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: محمد فؤاد عبد الباقي، ط. دار الفكر، ص 571-575.

[2]- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: برهان الدين البقاعي، 384/4.

[3]- تفسير التحرير والتنوير: محمد الطاهر بن عاشور، 88/14-89.

[4]- المصدر نفسه، 90/14 بتصرف.

[5]- المصدر نفسه.

2- في قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولاً﴾ الآية 95.

التوجيه الإعرابي:

"قل" فعل أمر وفاعله مستتر -أنت-، والجملة الاستئنافية "لو" شرطية غير جازمة، "كان" فعل ماض ناقص، "في الأرض" جار ومجرور متعلق بخبر "كان" مقدم، "ملائكة" اسم كان مرفوع، وجملة "كان ومتعلقاتها" في محل نصب مقول القول، "يمشون" فعل مضارع مرفوع بثبوت النون، والواو فاعل، والجملة في محل رفع نعت لـ "ملائكة"، "مطمئنين" حال منصوب بالياء من الفاعل[1]، "لنزلنا" اللام واقعة في جواب "لو"، و"نزل" فعل ماض، و"نا" فاعله، والجملة جواب الشرط لا محل لها، "عليهم" جار ومجرور متعلق بـ "نزلنا"، "من السماء" جار ومجرور متعلق بـ"نزلنا"، "ملكا" حال منصوب من "رسولا"، "رسولا" مفعول به منصوب.[2]

التوجيه البلاغي الإعرابي:

لما كان المقام هنا مقام جدال ناسب استفتاح ذلك بالأمر "قل"، ثم أعقب ذلك بالشرطية "لو" الامتناعية، وبالناسخ "كان" وبتقديم خبر كان على اسمها، لدلالات أشرنا إليها في الآية السابقة[3]، ثم أتى باسم كان "ملائكة" تناسبا مع شبههم في الآية السابقة، وأردفها بالوصف الفعلي "يمشون" تأكيدا لهم بأن ذلك من احتمال البشر، وأوضحه بالحال بعده "مطمئنين" أي مستقرين في الأرض للدلالة على أن «المشي والاطمئنان في الأرض صفة الإنسان»[4]، تستلزم بشرية الرسل قصد تبليغ، وتأمل كيف أجاب هنا عن الشرطية بحرف اللام، في حين أنه أجاب في آية أخرى بالحرف "إذن" لاختلاف مقام الجدال؛ ففي هذه كان اعتراض المشركين على

1- وجوز نصبه على النعتية لـ "ملائكة"، إعراب القرآن: أبو جعفر بن النحاس، 284/2.

2- إعراب القرآن الكريم: عبد الله علوان وآخرون، 1281/3.

3- في قوله تعالى: ﴿قل لو كان معه آلهة كما تقولون ...﴾ الآية 42.

4- تفسير التحرير والتنوير: محمد الطاهر بن عاشور، 14/168.

بشرية الرسل، وفي الآية الأولى كان إشراكهم الله آلهتهم في العبادة، فافترقا، ثم أتى بمتعلقات التنزيل المنسوب إلى نون العظمة الإلهية الدالة على محل الملائكة وعدم توافق ذلك مع ميولهم البشرية فقال: (عليهم من السماء ملكا رسولا) مع ملاحظة تقديم الجار والمجرور هنا على المفعولية والحالية، إشارة إلى هذا المعنى.

3- في قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنْفَاقِ وَكَانَ الإِنْسَانُ قَتُورًا﴾. الآية 100.

التوجيه الإعرابي:

"قل" فعل أمر، وفاعله مستتر -أنت-، والجملة الاستئنافية "لو" الشرطية، "أنتم" فاعل لفعل محذوف يفسره ما بعده عند البصريين، أو هو اسم لـ "كان" مقدرة بعد "لو"، والجملة بعده خبر كان، وجوز بعض النحاة "الكوفيون" رفعه على الابتداء[1]، "تملكون" فعل مضارع مرفوع بثبوت النون، والواو فاعل، والجملة تفسيرية لجملة "تملكون" المقدرة وهي في محل نصب مقول القول، "خزائن" مفعول به منصوب، "رحمة" مضاف إليه مجرور، "ربي" مضاف إليه مجرور، والياء مضاف إليه، "إذا" حرف جواب، "لأمسكتم" اللام واقعة في جواب "لو"، و"أمسك" فعل ماض، والتاء فاعله، والجملة جواب الشرط لا محل لها، "خشية" مفعول لأجله منصوب[2]، "الإنفاق" مضاف إليه مجرور، "وكان" الواو استئنافية، "كان" فعل ماض ناقص، "الإنسان" اسم كان مرفوع، "قتورا" خبره منصوب، والجملة تعليلية[3].

التوجيه البلاغي الإعرابي:

ما يلاحظ في سياق هذا النظم، وقوع الاسم المرفوع بعد الشرطية، "لو" وجمهور النحاة على تأويل إضمار فعل محذوف يفسره ما بعده، وهنا فيه تقديم

1- ينظر: معاني القرآن: الفراء، 63/3.

2- إعراب القرآن الكريم: عبد الله علوان وآخرون، 1283/3-1284.

3- الفريد في إعراب القرآن المجيد: الهمذاني، 303/2.

الاسم المرفوع «للتقوية والتأكيد للإشعار بأن ذكر الفعل بعد الأداة ثم ذكر فاعله، ثم ذكر الفعل مرة ثانية تأكيد وتقوية»[1]، لملك الله للسماوات والأرض وما فيهن، بدلالة ما بعدها عليها (خزائن رحمة ربي)، التي أكثر فيها من الإضافات لإفادة اختصاص الله بذلك، وكيف عبر عن "الخزائن" بصيغة الجموع «لأن المقام جدير بالمبالغة»[2]، وإذا كان من الآيتين السابقتين قد أجاب في أولهما بـ "إذا" وفي الثانية بـ "اللام"، فقد أجاب بهما هنا معا؛ وذلك «لتقوية معنى الجوابية، ولأن في "إذن" معنى الجزاء أيضا»[3]، ثم بين علة بخلهم فقال: "خشية الإنفاق"، ثم ختم الآية بالناسخ "كان" ومتعلقاته، للدلالة على رسوخ هذا الخلق الذميم في نفس الإنسان «لما فيه من صفة النقص اللازمة بلزوم الحاجة له»[4]، وتنويها –بالمقابل– بعطاء القدرة الإلهية، وفيض هذا العطاء، واستحقاق المعطي –الله عز وجل– الإفراد بالتوجه والدعاء.

الفرع الثاني: بلاغة المعاني القرآنية (السياقية الزمانية) للأداة الشرطية غير الجازمة "لو" في سورة الإسراء.

أكد النحاة في زمن "لو" أنها لا تدل إلا على الماضي، سواء دخلت على "يفعل"، أم اقترنت بـ "فعل"[5]، إلا أننا ونحن نرصد دلالتها الزمنية في القرآن الكريم وجدنا أنها تدل على غير الماضي، فتأتي دالة على الاستقبال تارة وعلى الزمن العام تارة أخرى[6].

فمما دل على الماضي قوله تعالى: ﴿**قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا**﴾[7]. إذ سياق هذه الآيات –الرد

تفسير التحرير والتنوير: محمد الطاهر بن عاشور، **175/14**.

– نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: برهان الدين البقاعي، **430/4**.

– التحرير والتنوير: محمد الطاهر بن عاشور، **176/14**.

– نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: برهان الدين البقاعي، **430/4**.

– تناولنا ذلك في الشطر الأول من هذه المقالة، ص **06،05**.

– الزمن في القرآن الكريم: بكري عبد الكريم، دار الكتاب الحديث، ص 285-289.

– الإسراء، الآية 95

على طلبات المشركين التعنتية-، والجو الاجتماعي الذي نزلت فيه هذه الآية "مناسبة النزول"[1]، يدلان أن هذا القول وجه للمشركين في الماضي (عهد النبي صلى الله عليه وسلم) وذلك تناسبا مع قوله في الآية السابقة (أو تأتي بالله والملائكة قبيلا)، وهذا كان طلب قريش، كما أن "ال" التعريف في قوله "الناس" هي للعهد عند من حملها على قريش[2]، ولذلك قال أبو حيان: «(فيه) إخبار من الله تعالى عن السبب الضعيف الذي منعهم من الإيمان»[3]، ويمكن حمله على الزمن العام، إذا اعتبرنا أن ذلك إشارة إلى العلة النفسية لكل المشركين—في كل زمان- في إنكار وحي الله وهدايته.

ولكن الأول أولى، لتوقف بعثة الرسل، قال ابن عاشور: «والمعنى: أن الله يرسل الرسول للقوم من نوعهم للتمكين من المخالطة»[4]. وحمل "ال" التعريف في "الناس" على الاستغراق، وضرب أمثلة للأقوام السابقة، مما يدل -بهذا- على إعجاز القرآن الكريم في أنه يدل على زمن ماض يشمل عصورا زمنية عديدة، يبتدئ من أقدمها، ويتصاعد رويدا رويدا إلى أن ينتهي إلى أقربها مضيا إلينا، وهذه خاصية فريدة في القرآن الكريم (الثراء الزمني).

وما يدل أيضا على هذا التنوع الزمني قوله تعالى: ﴿**قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا**﴾[5]، إذ تتضمن هذه الآية «عودا إلى إبطال تعدد الآلهة، زيادة في استئصال عقائد المشركين من عروقها»[6]، وهذا حادث واقع في الماضي في الإخبار عن تعنت المشركين وتقديسهم للأصنام، بل «كانوا يقولون أن الأصنام تقربهم إلى الله، فإذا علموا أنها تحتاج إلى الله فقد بطل

1- ينظر: تفسير القرآن العظيم: ابن كثير، **141/3**.

2- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: برهان الدين البقاعي، **427/4**.

3- البحر المحيط، أبو حيان، **81/6**.

4- تفسير التحرير والتنوير: محمد الطاهر بن عاشور، **167/14**.

5- سورة الإسراء، الآية 42.

6- تفسير التحرير والتنوير: محمد الطاهر بن عاشور، **88/14**.

كونه آلهة»[1]. وهذا هو المقصود من هذه الآية وغيرها من الآيات التي نزلت في سياق تصحيح معتقداتهم الفاسدة، وتوجيهها الوجهة الصحيحة، وثراء الزمن هنا ليس في إشارة الآية إلى ضلال أوهام المشركين في عبادة الأصنام في الزمن البعيد والزمن القريب الماضي فقط، بل إن هذا الثراء يمتد إلى عصرنا الحاضر، ويمتد إلى المستقبل القريب والبعيد منه، مادام الإنسان ينسج بأوهامه أصناما –مادية وفكرية– يعبدها من دون الله تعالى.

يقول الميداني في تصدير الآية: «قال الله عز وجل يعلم رسوله –صلى الله عليه وسلم– فكل داع إلى الله من أمته فقرة جدلية من فقرات مجادلة المشركين مع تعقيب رباني كاشف للحق»[2]، مع بقاء الامتناع دائما وأبدا.

دلالتها على الزمن العام غير المؤقت متضمن –أيضا– في قوله تعالى: ﴿**قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا**﴾[3]، إذ الزمن يتصاعد شيئا فشيئا من الماضي القريب (عصر النبي صلى الله عليه وسلم) إلى عصرنا وإلى من بعدنا، بحسب حال المخاطَبين الذين يتصفون دائما بهذه الصفة –البخل والإمساك–، ولكن صلاحية القرآن لكل زمان ومكان تصيّر هذه الخطاب قانونا زمنيا عاما غير مؤقت بفترة زمنية معينة، بل يتجاوز الزمان ليرتبط بالإنسان ما دام متمثلا لهذه العلة النفسية، وتمثل هذا القانون العام في فاصلة الآية (وكان الإنسان قتورا)، بهذا التعميم والشمول الذي دل عليه مظروف الناسخ، واستغراق التعريف، ومبالغة الوصف، إذ معنى هذا المقطع الأخير، أن «الإنسان بخيل بالكينونة الدائمة»[4].

---

[1] – البحر المحيط: أبو حيان، 40/6.

[2] – معارج التفكر ودقائق التدبر، عبد الرحمن الميداني، 633/9.

[3] – سورة الإسراء، الآية 100.

[4] – معارج التفكر ودقائق التدبر: الميداني، 741/9.

خلاصة عامة:

ويمكن إجمالها في النقاط التالية:

1- تميز القرآن الكريم وإبداعه في توظيف هذه الأداة وغيرها من الأدوات الأخرى، كل في موقعه المكين من النظم، وعلى حسب العلاقات الوطيدة بين هذه المعاني النحوية، داخل الآية القرآنية، بل إن هذا التماسك النظمي، وأن هذا السبك المحكم قد سرى في كل آيات السورة، ونسج بين خيوطها العريضة نسجا محكما، فإذا هي بعد ذلك -وحدة نظمية واحدة-.

2- كما تمثل -أيضا- هذا الإعجاز القرآني في التنويع والثراء الزمني لهذه الأداة الشرطية، غير مقتصر على زمن واحد (الاستقبال) كما جزم به النحاة، هذا التنوع الزمني لابسه أيضا تنوع ثري في المعاني والأغراض البلاغية التي صاحبت هذه الأدوات في منحنى تصاعدي مستمر، يجمع بين طلاقة الزمان، وعمق معالجة نفس الإنسان، وتنوع الأساليب البلاغية من حذف وإضمار وإيجاز ووصل وعطف وغيرها؛ بنمط أسلوبي فريد من نوعه، ومتسم بدرجات عالية من الجزالة والفصاحة غير متفاوتة؛ خلبت ألباب النحاة واللغويين.

3- أن الأدوات الشرطية ـ عموما ـ لا تحدد زمن الفعل تحديدا ما، فقد يدل الفعل معها على المضي وهو مضارع، وقد يبقى على مضيه، وقد يصرف إلى الاستقبال، كل ذلك يتحقق وفق السياق اللغوي والاجتماعي[1]، الذي يرد فيه هذا التركيب، أما أن هذا التركيب الشرطي خاو من الزمان؛ لأن أفعالها خالية من الأحداث؛ فاستنتاج خارج عن نطاق اللغة وبعيد عن طبيعتها؛ إذ دل على خلاف ذلك وضوح التأثيرات الزمنية لأداة الشرط في تنوع الزمن داخل الجملة الشرطية[2].

1- للاستزادة يراجع: منهج السياق في فهم النص: عبد الرحمن بودرع، ط. كتاب الأمة، ص 41 وما بعدها.

2- الزمن في القرآن الكريم، بكري عبد الكريم، ص 296.

4- من النتائج المهمة هنا أن دراسة أزمنة هذه الأدوات أفعالها في القرآن الكريم هي دراسة وظيفية دلالية، لا تكتفي بالفعل وحده، أو بالأداة التي تسبقه أو تلحقه، بل تعتمد في المقام الأول على الملابسات والسياق الذي يتحرك فيهما الفعل والجملة الشرطية عموما، ولهذا انتبه بعض المفسرين، وجاءت دراستهم التفسيرية – تبعا لذلك- شاملة، ودقيقة، وممتعة، محاولة بذلك الكشف عن إعجاز القرآن الكريم وجمالياته على المستوى النظمي، وهذا ما برع فيه الشيخ محمد الطاهر بن عاشور في تفسيره "التحرير والتنوير".

5- من أهم الملاحظات التي نختم بها هذا البحث، ضرورة الوصل بين علوم اللغة المختلفة في دراسة قضية لغوية معينة، بين البلاغة والنحو وعلم البيان، هذا من جهة، ثم وصلها وتطبيقها على آي القرآن الكريم –مستودع الإعجاز البلاغي والنحوي- وبيانها في دراسات مستفيضة ومتكاملة، فيما يعرف عند أهل الاختصاص بالدراسات البيانية، فهي مهمة جدا في الدرس اللغوي، وفي التعليم الجامعي.